سورةُ الانشِقاقِ

من الآية (1) إلى الآية (15)

أسماء السورة:

سُمِّيَت هذه السُّورةُ: سورةَ الانشِقاقِ. وسُمِّيَت أيضًا سورةَ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ : فعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مَن سَرَّه أن يَنظُرَ إلى يومِ القيامةِ كأنَّه رَأْيُ عَينٍ فلْيَقرَأْ: إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ وإِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ وإِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ)) .

وعن أبي رافِعٍ، قال: ((صَلَّيتُ مع أبي هُرَيرَةَ العَتَمةَ، فقَرَأَ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ فسجَدَ، فقُلتُ له. قال: سجَدْتُ خَلْفَ أبي القاسِمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلا أزالُ أسجُدُ فيها حتَّى ألقاه)) .

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((سَجَدْنا مع النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ واقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ)).

فضائل السورة وخصائصها:

1- مَن قَرَأها فكأنَّه يَنظُرُ إلى يومِ القيامةِ رَأْيُ عَين: كما في حديثِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما المتقدِّمِ.

2- فيها مَوضِعُ سَجْدةٍ:

لِما تقدَّمَ في حديثِ أبي هُرَيرة، وذلك عندَ قوله تعالى: فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ.

بيان المكي والمدني:

سورةُ الانشِقاقِ مَكِّيَّةٌ، نقَلَ الإجماعَ على ذلك غيرُ واحِدٍ مِنَ المفَسِّرين.

مقاصد السورة:

مِن أهَمِّ مقاصِدِ السُّورةِ: وصفُ يومِ القيامةِ، وأحوالِ النَّاسِ فيه.

موضوعات السورة:

مِن أهمِّ الموضوعاتِ الَّتي اشتَمَلَتْ عليها السُّورةُ:

1- ذِكرُ أهوالِ يومِ القيامةِ.

2- الحديثُ عن أحوالِ السُّعَداءِ والأشقياءِ يومَ القيامةِ.

3- تحذيرُ الكافِرينَ مِن سُوءِ عاقِبةِ إصرارِهم على كُفْرِهم وفُسوقِهم.

أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ (1) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (2) وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ (3) وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ (4) وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ (5) يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (6) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (7) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (8) وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا (9) وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ (10) فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا (11) وَيَصْلَى سَعِيرًا (12) إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا (13) إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ (14) بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (15) .

إن السورة في الجملة تتحدث عن اليوم الآخر، وتتحدث عن رحلة الإنسان كاملة من أولها إلى آخرها:

❶الآيات الأولى تتحدث عن القيامة، ❷والآيات التي بعدها تتحدث عن الإنسان، ❸والآيات التي بعدها تتحدث عن الحساب والجزاء.

﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ﴾﴿1﴾

(إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) أي: إذا تَشَقَّقت السَّماءُ يومَ القيامةِ وتصَدَّعَت. موسوعة التفسير

قال السعدي: يقول تعالى مبينًا لما يكون في يوم القيامة من تغير الأجرام العظام: (إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ) أي: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها، وخسف بشمسها وقمرها.

كما قال تعالى: وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ [الحاقة: 16].

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾﴿2﴾

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) أي: واستمَعَت لأمرِ رَبِّها وأطاعَتْه في تشَقُّقِها، وحُقَّ لها أن تستَمِعَ لأمْرِه وتُطيعَه؛ فهو رَبُّها الَّذي خلَقَها ويَملِكُها ويُدَبِّرُ أمْرَها. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاخت لخطابه، وحق لها ذلك، فإنها مسخرة مدبرة تحت مسخر ملك عظيم، لا يعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

وقال البِقاعي: (بمعنى: أنَّها مَجبولةٌ على أنَّ ذلك حَقٌّ عليها ثابِتٌ لها، فهي حقيقةٌ به؛ لأنَّها مَربوبةٌ له سُبحانَه، وكُلُّ مَربوبٍ فهو حقيقٌ بالانقيادِ لرَبِّه، وهي لم تَزَلْ مُطيعةً له في ابتدائِها وانتهائِها، لكِنْ هناك يكونُ الكَشْفُ التَّامُّ لجميعِ الأنامِ).

(ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)[فصلت:11]

فلا يسع هذه المخلوقات والأجرام العظيمة على قوتها وشدتها إلا الانقياد والسماع والطاعة، وحق لها ذلك فهو العظيم الأعظم.

﴿وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ﴾﴿3﴾

(وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ) أي: وإذا بُسِطَت الأرضُ يومَ القيامةِ ومُطَّتَ بعْدَ نَسْفِ جِبالِها، فتكونُ أرضًا واسِعةً مُسْتَويةً لا انخِفاضَ فيها ولا ارتِفاعَ ولا انثِناءَ، وتَسَعُ النَّاسَ جَميعًا على كَثْرَتِهم. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومدها الله تعالى مد الأديم، حتى صارت واسعة جدًا، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعًا صفصفًا لا ترى فيها عوجًا ولا أمتا.

كما قال تعالى: يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ [إبراهيم: 48] .

وقال سبحانه: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا * فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا * لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا [طه: 105 – 107] .

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: "يَجمَعُ اللهُ يومَ القيامةِ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ في صعيدٍ واحدٍ، فيُسمِعُهم الدَّاعي، ويَنفُذُهم البَصَرُ" متفق عليه.

«عن عبدِ اللهِ بنِ عمرو قال إذا كان يومُ القيامةِ مُدَّ الأديمُ وحُشِرَ الدَّوابُّ والبهائمُ والوحشُ ثم يحصلُ القِصاصُ بين الدوابِّ يُقتصُّ للشاةِ الجمَّاء من الشاةِ القرناءِ نطحَتْها فإذا فُرِغَ من القِصاصِ بين الدوابِّ قال لها كوني تُرابًا قال فعند ذلك يقول الكافرُ يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تَرَابًا». حكم المحدث الألباني: إسناده جيد

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ﴾﴿4﴾

(وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ) أي: وألقَتِ الأرضُ ما في بَطْنِها مِن الأمواتِ إلى سَطْحِها، فخلَتْ عمَّا كان فيها، ولم يَبْقَ فيها أحدٌ منهم. موسوعة التفسير

قال السعدي: من الأموات والكنوز. (وَتَخَلَّتْ) منهم، فإنه ينفخ في الصور، فتخرج الأموات من الأجداث إلى وجه الأرض، وتخرج الأرض كنوزها، حتى تكون كالأسطوان العظيم، يشاهده الخلق، ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون.

قال -ρ-:"تَقِيءُ الأرْضُ أفْلاذَ كَبِدِها، أمْثالَ الأُسْطُوانِ مِنَ الذَّهَبِ والْفِضَّةِ، فَيَجِيءُ القاتِلُ فيَقولُ: في هذا قَتَلْتُ، ويَجِيءُ القاطِعُ فيَقولُ: في هذا قَطَعْتُ رَحِمِي، ويَجِيءُ السَّارِقُ فيَقولُ: في هذا قُطِعَتْ يَدِي، ثُمَّ يَدَعُونَهُ فلا يَأْخُذُونَ منه شيئًا" رواه مسلم.

قال ابن عطية: أنَّها بعدَ أن كانت لهم كِفاتًا أحياءً وأمواتًا، وبعدَ أن كانت لهم مِهادًا، لَفَظَتْهم وتخَلَّت عنهم، وهذا ما يَزيدُ في رَهبةِ الموقِفِ وشِدَّتِه والتَّضييقِ على العِبادِ؛ وأنْ لا مَلْجَأَ لهم ولا مَنجى إلَّا إلى اللهِ، كما قال تعالى: كَلَّا لَا وَزَرَ * إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ [القيامة: 11-12] .

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾﴿5﴾

(وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) أي: واستَمَعَت لأمرِ رَبِّها، وأطاعَتْه في إخراجِ ما في بَطْنِها من الأمواتِ، وحُقَّ لها أن تستَمِعَ لأمْرِه وتُطيعَه؛ فهو رَبُّها الَّذي خلَقَها ويَملِكُها ويُدَبِّرُ أمْرَها. موسوعة التفسير

قال ابن عطية: ممَّا هو جَديرٌ بالتَّنبيهِ عليه أنَّه إذا كانت السَّماءُ مع عِظَمِ جِرْمِها، والأرضُ مع مِساحةِ أَصْلِها (أَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ) مع أنَّها لم تتحَمَّلْ أمانةً، ولن تُسأَلَ عن واجِبٍ؛ فكيف بالإنسانِ على ضَعْفِه، وقد تحَمَّلَ أمانةَ التَّكليفِ؟! كما قال تعالى: أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ [النازعات: 27] ، وكقولِه تعالى:

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ [الأحزاب: 72] ؛ فكان أحَقَّ بالسَّمعِ والطَّاعةِ في كَدْحِه إلى أن يَلْقى رَبَّه لِما يُرْضِيه.

قال ابن عثيمين: أنَّ الكونَ كُلَّه مُطِيعٌ مُنقادٌ لأوامِرِ اللهِ ؛ فتأمَّلْ أيُّها الآدَمِيُّ البَشَرُ الضَّعيفُ كيف كانت هذه المخلوقاتُ العَظيمةُ تَسمَعُ وتُطيعُ لله عزَّ وجَلَّ هذه الطَّاعةَ العظيمةَ في ابتداءِ الخَلْقِ، وفي انتهاءِ الخَلْقِ! في ابتداءِ الخَلْقِ قال: ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ [فصلت: 11] ، وفي انتهاءِ الخَلْقِ: إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ * وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ حُقَّ لها أن تأذَنَ: تَسمَعَ وتُطيع.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾﴿6﴾

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) أي: يا أيُّها الإنسانُ إنَّك عامِلٌ أعمالًا تجتَهِدُ فيها سواءٌ كانت خيرًا أو شرًّا، ثمَّ تَرجِعُ إلى رَبِّك فتَلْقاه بعَمَلِك ويُجازيك عليه. موسوعة التفسير

الكدح في اللغة: هو السعي في الشيء بجهد، بصرف النظر هل هذا الجهد في خير أو شر.

قال النبي -ρ-:"كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُها، أَوْ مُوبِقُها". رواه مسلم

كل الناس تتعب، لكن الذي تعبه يعود عليه بالنفع في دينه ودنياه هذا الذي يعتق نفسه، أما الذي تعبه يعود وبالاً عليه فهذا يوبقها في النار.

☜كل الناس يتعبون،(إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)[النساء:104].

قال ابنُ جُزَي: (الكَدْحُ في اللُّغةِ هو: الجِدُّ والاجتِهادُ والسُّرعةُ، فالمعنى: إنَّك في غايةِ الاجتِهادِ في السَّيرِ إلى رَبِّك؛ لأنَّ الزَّمانَ يطيرُ، وأنت في كلِّ لحظةٍ تقطَعُ حَظًّا مِن عُمُرِك القَصيرِ، فكأنَّك سائِرٌ مُسرِعٌ إلى الموتِ، ثمَّ تلاقي ربَّك).

قال ابنُ القَيِّم: (فَمُلَاقِيهِ إنْ عاد الضَّميرُ على العَمَلِ فهو رؤيتُه في الكتابِ مَسطورًا مُثبَتًا، وإن عاد على الرَّبِّ سُبحانَه وتعالى فهو لقاؤه الَّذي وَعَد به).

قال ابن عثيمين: إثباتُ لقاءِ اللهِ عزَّ وجلَّ، ويؤخَذُ مِن ذلك: أنَّه يَجِبُ على الإنسانِ أنْ يَستَعِدَّ لِمُلاقاةِ اللهِ، وأنْ يَعْرِفَ كيف يُلاقي اللهَ: هل يُلاقيه على حالٍ مَرْضِيَّةٍ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ، أو على العَكسِ؟ ففَتِّشْ نفْسَك، واعرِفْ ما أنت عليه.

قال ابن عثيمين: أنَّ الإنسانَ لا بُدَّ أنْ يكونَ دائمًا في عملٍ، يجتازُ مِن عَمَلٍ إلى عَمَلٍ، ليس في حياتِه عُطْلةٌ إطلاقًا؛ فالإنسانُ دَؤوبٌ كادِحٌ إلى أنْ يَلقى اللهَ عزَّ وجلَّ، فقد أَتَتِ «الفاءُ» بعدَ قولِه: إِنَّكَ كَادِحٌ إشارةً إلى أنَّ هذا الكَدْحَ سوف يَستَمِرُّ إلى مُلاقاةِ اللهِ عزَّ وجلَّ، وذلك بحُلولِ الأَجَلِ.

قال ابن تيمية: أنَّ الخَلْقَ كلَّهم مَصيرُهم ومَرْجِعُهم إلى اللهِ على أيِّ طريقٍ سَلَكوا.

قال السعدي: أي: إنك ساع إلى الله، وعامل بأوامره ونواهيه، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر، ثم تلاقي الله يوم القيامة، فلا تعدم منه جزاء بالفضل إن كنت سعيدًا، أو بالعدل إن كنت شقيًا.

﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾[الشورى: 20]

قَالَ رَسُولُ اللَّه –ρ–: "قَالَ جِبْرِيل: يَا مُحَمَّد عِشْ مَا شِئْت فَإِنَّك مَيِّت، وَأَحْبِبْ مِنْ شِئْت فَإِنَّك مُفَارِقه، وَاعْمَلْ مَا شِئْت فَإِنَّك مُلَاقِيه". صحيح الجامع

كما قال تعالى: إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ [الغاشية: 25-26] .

وقال سبحانه: يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ [آل عمران: 30].

تعمل وتكدح بجد بعمل دؤوب، هذا العمل يفضي في النهاية إلى حجز مقعد في الجنة أو حجز مقعد في النار، فهذا العمر هو الأنفاس، فهي صناديق للعمل فإما أن تملأ هذه الخزائن بالطاعات، وإما أن تملأ بالمعاصي، ثم يفضي الناس إلى القيامة والحساب فتفتح هذه الخزائن –صحف الأعمال–، ثم بعد ذلك يحصل التغابن الكثير بين الناس، فهذا اشترى منزلاً في الجنة، وهذا اشترى منزلاً في النار.

ما الواجب على العبد فعله إذا علم أنه ملاقٍ ربه عز وجل ؟ قال البقاعي: مَنْ كان الليل والنهار مطيته أوصلاه بلا شك إلى منتهى سفره شاء أو أبى، فذكر هذا على هذا النمط حثٌّ على الاجتهاد في الإحسان في العمل؛ لأن من أيقن بأنه لا بد له من العرض على الملك أفرغ جهده في العمل بما يحمده عليه عند لقائه.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾﴿7﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا كان مِن المعلومِ أنَّ عَبيدَ المِلكِ إذا عُرِضوا عليه كان فيهم المقبولُ والمردودُ؛ بسَبَبِ أنَّ كَدْحَهم تارةً يكونُ حَسَنًا، وتارةً يكونُ سَيِّئًا؛ قال مُعَرِّفًا أنَّ الأمرَ في لقائِه كذلك على ما نَعهَدُ؛ فمَن كان مقبولًا أُعطِيَ كِتابَه بيمينِه، ومَن كان مردودًا أُعطِيَ كتابَه بشِمالِه؛ فتَرْجَمَ هذا الغَرَضَ بقولِه:

(فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ) أي: فأمَّا المؤمِنُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه، فيَتَسلَّمُه بيَدِه اليُمْنى. موسوعة التفسير

ولهذا ذكر تفصيل الجزاء، فقال: وهم أهل السعادة.

قال ابن عاشور: الكِتابُ: صَحيفةُ الأعمالِ، وجُعِلَ إيتاؤُه إيَّاه بيَمينِه شِعارًا للسَّعادةِ؛ لِما هو مُتَعارَفٌ مِن أنَّ اليَدَ اليُمْنى تَتناوَلُ الأشياءَ الزَّكيَّةَ.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾﴿8﴾

(فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا) أي: فسوف يُحاسَبُ يومَ القيامةِ حِسابًا سَهْلًا، فتُعرَضُ عليه سَيِّئاتُه المكتوبةُ بلا مناقَشةٍ وتدقيقٍ وإطالةٍ، ولا يُؤاخَذُ بها. موسوعة التفسير

قال السعدي: وهو العرض اليسير على الله، فيقرره الله بذنوبه، حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك، قال الله [تعالى] له: «إني قد سترتها عليك في الدنيا، فأنا أسترها لك اليوم» .

وعن عائِشةَ رَضِيَ الله عنها، أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((مَنْ حُوسِبَ عُذِّبَ. فقُلتُ: أوَلَيس يقولُ اللهُ تعالى: فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا؟! فقال: إنَّما ذلكِ العَرضُ، ولكِنْ مَن نُوقِشَ الحِسابَ يَهلِكْ))رواه البخاري.

يقول النبيُّ –ρ-: "لا تَزولُ قدَمَا عَبْدٍ يومَ القيامةِ، حتَّى يُسألَ عن عُمُرِه؛ فيمَ أفناه؟ وعن عِلْمِه؛ فيم فعَلَ فيه؟ وعن مالِه؛ من أين اكتسَبَه؟ وفيم أنفقَه؟ وعن جِسمِه؛ فيمَ أبلاه؟". صحيح الجامع

قال عمر –τ-: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطاكم إلى غيركم وسيتخطى غيركم إليكم، فخذوا حذركم".

قال رسول الله –ρ-: "الكَيِّس مَنْ دانَ نفسه، وعَمِلَ لما بعد الموت، والعاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَواهَا وتمنَّى على الله"[أخرجه الترمذي عن شداد بن أوس]

يقول –ρ-: "إنَّ أولَ ما يُحاسَبُ به العبدُ يومَ القيامةِ من عملِه صلاتُه، فإن صَلُحَتْ فقد أفْلَحَ وأَنْجح، وإن فَسَدَتْ فقد خاب وخَسِرَ، فإن انْتَقَص من فريضتِه شيئًا، قال الربُّ تبارك وتعالى : انْظُروا هل لعَبْدِي من تطَوُّعٍ فيُكَمِّلُ بها ما انتقَص من الفريضةِ، ثم يكونُ سائرُ عملِه على ذلك" سنن الترمذي

☜وذلك فيما بين العبد وربه أما فيما هو بين الناس فإن النبيَّ –ρ- يقول: "أوَّلُ ما يُقْضَى بيْنَ النَّاسِ يَومَ القِيامَةِ في الدِّماءِ" مسلم .

←ومن صور تيسير الحساب على المؤمنين ما روي عن النبيِّ –ρ- قال: "كان تاجر يُداين الناس، فإذا رأى معسِرًا قال لِفتيانه: تجاوزوا عنه، لعل الله يتجاوز عنا، فتجاوز الله عنه". رواه بخاري

✍إذًا لا بد أن يتصف المسلمُ بالعفو والتجاوز عن حقه في موطن القدرة؛ فذلك من مكارم الأخلاق التي تصل به إلى أن يتجاوز اللهُ عنه.

←كذلك من أسباب تيسير الحساب أن يستر العبدُ نفسه في الدنيا، فلا يجاهر بالمعاصي، رجاء أن يتوبَ منها؛ قال رَسولَ الله –ρ-: "إنَّ اللهَ يُدْنِي المؤمنَ فيَضَعُ عليه كَنَفَه ويَستُرُه، فيقولُ: أتَعرِفُ ذَنْبَ كذا؟ أتعرِفُ ذَنْبَ كذا؟ فيقولُ: نَعَمْ، أيْ رَبِّ! حتَّى إذا قَرَّرَه بذُنُوبِه، ورأى في نَفْسِه أنَّه هَلَكَ، قال: ستَرْتُها عليك في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليَومَ، فيُعطَى كِتابَ حَسَناتِه" رواه البخاري.

﴿وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾﴿9﴾

(وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا) أي: ويَنصَرِفُ إلى أهلِه في الجَنَّةِ مَسرورًا بنَجاتِه مِن الجَحيمِ، وبما أعطاه اللهُ مِن النَّعيمِ العَظيمِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: (وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ) في الجنة (مَسْرُورًا) لأنه نجا من العذاب وفاز بالثواب.

وقال الشوكاني: (أي: ويَنصَرِفُ بعدَ الحِسابِ اليَسيرِ إلى أهلِه الَّذين هم في الجَنَّةِ مِن عَشيرتِه، أو إلى أهلِه الَّذين كانوا له في الدُّنيا مِن الزَّوجاتِ والأولادِ وقد سَبَقوه إلى الجَنَّةِ، أو إلى مَن أعَدَّه اللهُ له في الجَنَّةِ مِنَ الحُورِ العِينِ والوِلْدانِ المخَلَّدينَ، أو إلى جميعِ هؤلاء، مسرورًا مُبتَهِجًا بما أُوتِيَ مِنَ الخَيرِ والكرامةِ).

وهذا هو النجاح الحقيقي والفوز العظيم، النجاة يوم الوعيد، والظفر بخير الدنيا والآخرة.

كما قال تعالى: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ * إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ * كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ [الحاقة: 19 – 24].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ﴾﴿10﴾

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ) أي: وأمَّا الكافِرُ الَّذي يُعطَى كِتابَ أعمالِه، فيَتسَلَّمُه بشِمالِه مِن خَلْفِ ظَهْرِه. موسوعة التفسير

وهذا هو الذي يخسر الخسارة التي ليس بعدها خسارة، الذي يكون في حسرة وندامة، هذا الذي لا يستطيع أحد أن يتوسط، ولا يتدخل، ولا يشفع، ولا يدفع، ولا يعاوض، ولا يساوم، ولا بالقوة، إنما الهلاك المحقق هو مصيره –نسأل الله العافية– .

كما قال تعالى: وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ [الحاقة: 25 – 29].

قال الألوسي: وتمييز الكفرة بكون الإعطاء من وراء ظهورهم ولعل ذلك لأن مؤتي الكتب لا يتحملون مشاهدة وجوههم لكمال بشاعتها أو لغاية بغضهم إياهم، أو لأنهم نبذوا كتاب الله وراء ظهورهم.

وهي صورة تدلُّ على الذُّل والانكسار والخزي يوم القيامة، كما أنه أعرض عن ربه –Y– وجعل كلامه وراء ظهره، (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ)[الحشر:19] الجزاء من جنس العمل، تركوا العمل بطاعته والإيمان به فأنساهم أنفسهم، صار شغلهم فيما يضرهم، أنساهم العمل بما ينفعهم ويرفعهم، صار اشتغالهم والتذاذهم بما يعود عليهم بالعطب والهلاك، وهنا جعلوا كتاب الله وراءهم ظِهريًا فأخذوا كتاب الأعمال من وراء ظهورهم، والله –Y– حكَمٌ عدل.

قال ابن جزي: كيف قال في الكافر هنا أن يؤتى كتابه وراء ظهره وقال في الحاقة بشماله؟ فالجواب: أن يديه تكونان مغلولتين إلى عنقه، وتجعل شماله وراء ظهره فيأخذ بها كتابه.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾﴿11﴾

(فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا) أي: فسوف يُنادي على نَفْسِه بالهَلاكِ والخُسْرانِ؛ نَدامةً وحَسرةً مِمَّا يَرى في كتابِه من السَّيِّئاتِ. موسوعة التفسير

قال السعدي: من الخزي والفضيحة، وما يجد في كتابه من الأعمال التي قدمها ولم يتب منها.

لكن لو صاح حتى ينشق حلقه ما كان ذلك يغني عنه شيئًا (اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)[الطور:16] (سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ) [إبراهيم:21].(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ) [الزخرف: 77]

كما قال تعالى: (وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا)[الكهف: 49].

﴿وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾﴿12﴾

(وَيَصْلَى سَعِيرًا) أي: وينغَمِسُ في النَّارِ الملتَهِبةِ الشَّديدةِ التَّوَقُّدِ، فيَحتَرِقُ فيها. موسوعة التفسير

قال السعدي: أي: تحيط به السعير من كل جانب، ويقلب على عذابها، وذلك لأنه في الدنيا (كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا) لا يخطر البعث على باله، وقد أساء، ولم يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه.

كما قال تعالى: وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ [النساء: 55-56].

﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾﴿13﴾

مُناسَبةُ الآيةِ لِما قَبْلَها: قال البقاعي: لَمَّا ذكَر العَذابَ الَّذي لا يُطاقُ؛ أتْبَعَه سَبَبَه؛ تَرهيبًا منه، وحثًّا على التَّوبةِ

(إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا) أي: إنَّه كان في الدُّنيا مسرورًا في أهلِه باتِّباعِ هَواه، ورُكوبِ شهوتِه، واقترافِ المعاصي، فَرِحًا بدُنْياه، لا يُفَكِّرُ في عاقِبةِ أعمالِه، ولا يَخافُ عَذابَ الآخِرةِ. موسوعة التفسير

بمعنى أنه لم يكن يخاف ويشفق من هذا اليوم ومن لقاء الله –Y–، ومن الجزاء والحساب، فكان في حال من السرور والتفكه والفرح الذي يحمل صاحبه على الأشَر، والبطَر، والغفلة، والترك.(الطغيان عند النعمة).

سرور هؤلاء مذموم، السرور الذي يكون بالرضا بالحياة الدنيا والتنعم بها بعيدًا عن الله –عز وجل– والدار الآخرة، وبعيدًا عن الإيمان هذا سرور مذموم؛ ولهذا أهل الجنة حينما يدخلون الجنة ماذا يقولون؟ (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ)[فاطر:34].

ولهذا ينبغي للإنسان أن يراجع نفسه، وأن ينظر هل قلبه يتحرك إذا عصى الله، هل هو مشفق من الدار الآخرة؟، أو أنه يضحك بملء فيه؟، تفوته الصلاة ويضحك بملء فيه، ويضيع حقوق الله، ويفعل المعاصي والجرائم، ويضحك بملء فيه، يخرج من المعصية ويضحك، هذا يكون القلب قد وصل إلى حالة من الضعف وربما الموت فلا يتأثر.

بَيْدَ أن هذا السرور الذي وصفه القرآن في حياة الكافر الدنيوية ليس هو السرور الذي ينشرح له القلب؛ إذ إن نفسه لا تزال مظلمة تعيسة بعيدة عن ذِكر الله تعالى، فهو لا يستشعر السعادة أبدًا في نفسه؛ يقول سبحانه: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا) [طه: 124]

وإنما تقتصر تلك السعادة التي يستشعرُها هو على أهله وعشيرته وسلطانه وأمواله، لكنها سعادة ناقصة ممتلئة بالفراغ، سعادة يشوبها الحرمان، الحرمان من السعادة الحقيقية، انظروا كيف وصف القرآن ضِيق صدرهم فقال سبحانه: (فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ)[الأنعام: 125]،

انظروا كيف صوَّر القرآن انشغال بالهم فقال سبحانه: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [الزمر: 29]

انظروا كيف بيَّنت السنَّة عدم قناعتهم بتلك النِّعم، وبحثهم عما يشبعهم إلى ما ليس له حد؛ يقول النبي -ρ-: "الكافرُ يأكُلُ في سبعةِ أمعاءٍ والمؤمِنُ يأكُلُ في مِعًى واحدٍ" رواه مسلم، فهم دائمًا جوعى عطشى محرومون، فأنى تكون سعادتهم عندئذ؟ كيف هذا السرور الذي يؤدي إلى التخمة والكسل؟ كيف يكون هذا السرور الذي يؤدي إلى ضيق الصدر وعدم راحة البال؟ هم أحسوا السرور أول الأمر عندما أنعم الله عليهم بتلك النعم حتى يتذوقوا النعمة، فيستشعروا الفضل، فيكون ذلك داعيًا لهم على الشكر، إلا أنهم لما كفروا بالنعمة وآمنوا بالباطل، ضاع سرورُهم في الدنيا، وانقلب إلى همٍّ وغمٍّ.

قال ابن عثيمين: اربطْ بيْن قولِه تعالى وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا، وهذا: كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا تجِدْ فرقًا بيْن السُّرورَينِ؛ فسُرورُ الأوَّلِ سرورٌ دائمٌ -نسألُ اللهَ أن يجعَلَنا منهم-، وسرورُ الثَّاني سُرورٌ زائِلٌ.

قال ابن كثير: متى يكون الفرح مذموما ؟ أي: فرحاً لا يفكر في العواقب، ولا يخاف مما أمامه، فأعقبه ذلك الفرح اليسير الحزن الطويل.

﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ﴾﴿14﴾

(إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ) أي: إنَّ هذا الكافِرَ قد ظَنَّ في الدُّنيا أنَّه لن يَرجِعَ إلى رَبِّه بعْدَ مَوتِه؛ لِيُحاسِبَه ويُجازِيَه على أعمالِه، فلَمْ يكُنْ يَخشَى عِقابًا أو يَرجو ثَوابًا. موسوعة التفسير

كما قال تعالى: وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ [الجاثية: 24].

قال ابن عطية: يُشعِرُ أنَّ عدَمَ الإيمانِ بالبَعثِ أو الشَّكَّ فيه: هو الدَّافِعُ لكُلِّ سُوءٍ، والمضَيِّعُ لكُلِّ خَيرٍ، وأنَّ الإيمانَ باليَومِ الآخِرِ هو المنطَلَقُ لكُلِّ خيرٍ، والمانِعُ لكُلِّ شَرٍّ، والإيمانُ بالبَعْثِ هو مُنطَلَقُ جميعِ الأعمالِ الصَّالحةِ.

﴿بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾﴿15﴾

(بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا) أي: ليس الأمرُ كما يَظُنُّه هذا المكَذِّبُ بالبَعْثِ؛ فإنَّه سيُبعَثُ حَيًّا بعدَ مَوتِه، واللهُ بصيرٌ به ومُطَّلِعٌ على أعمالِه، فلا يخفى عليه كُفْرُه أو عِصيانُه، وسيُجازيه على ذلك . موسوعة التفسير

قال البقاعي: (بَصِيرًا أي: ناظِرًا له وعالِمًا به أبلَغَ نَظَرٍ وأكمَلَ عِلمٍ؛ فترْكُه مُهمَلًا -مع العِلمِ بأعمالِه- مُنافٍ للحِكمةِ والعَدْلِ والملْكِ؛ فهو شَيءٌ لا يمكِنُ في العَقْلِ بوَجهٍ).

📄قال السعدي: فلا يحسن أن يتركه سدى، لا يؤمر ولا ينهى، ولا يثاب ولا يعاقب.

📄قال ابن عاشور: إشارةٌ إلى حِكمةِ البَعْثِ للجَزاءِ؛ لأنَّ رَبَّ النَّاسِ عَليمٌ بأحوالِهم؛ فمنهم المصلِحُ، ومنهم المفسِدُ، والكُلُّ متفاوِتونَ في ذلك؛ فليس مِن الحِكمةِ أن يَذهَبَ المفسِدُ بفَسادِه وما ألحَقَه بالموجوداتِ مِن مَضَارَّ، وأن يُهمَلَ صَلاحُ المصلِحِ؛ فجَعَل اللهُ الحياةَ الأَبَديَّةَ، وجَعَلَها للجَزاءِ على ما قَدَّم صاحِبُها في حياتِه الأُولى.